

عن ديوان البياتي :

## « الذي يأتي ولا يأتي »

بقلم أوقي محمد

لا تفرقه قضايا الحياة الجزئية ويدفعه طموح لا يرحم الى محاولة العثور على المعاني الكلية للذئاب واللذة والحياة والموت ، وكان الخيام أحد الجسور التي تحقق عن طريقها التفاعل الخلاق بين الحضارة العربية والحضارات الاخرى في عصره . ففتح النوافذ امام ابعاد جديدة في الفكر الانساني ، واقام اعماله الفلسفية والعلمية ورباعياته الشهيرة على أساس عريض وعميق في الثقافة . الشيء الذي جعل منها منبعاً يستلهم الابداع في العصور التالية .

لقد مضت قرون طويلة على موت هذا الشاعر الفيلسوف وتفجرت الثورات في انحاء العالم باسم حق الانسان في الحرية ، حرية الاعتقاد ، وحرية الاختيار ، واعلنت حقوق الانسان وأبرمت موانيق الامم وظهر فلاسفة آخرون يعملون اللواء تحت اسماء جديدة - العقد الاجتماعي - الضرورة التاريخية - المجتمع الاشتراكي - الوجودية .

وفي استطاعتنا ان نقول بان كل هذه المواقف والاحداث انما تؤكد مدى اصالة دعوة شاعرنا الفيلسوف وتؤكد ايضا الى أي حد يمكن ان يدعم تاريخنا الثقافي واقفنا الحاضر اذا انصبت الرؤية على الكنان الصحيح بالاسلوب الصحيح ، الشيء الذي تنبه له شاعرنا المصارع عبد الوهاب البياتي في ديوانه السابق ( سفر الفقر والثورة ) حيث اتخذ من حياة الصوفي الثائر الشهيد الحسين بن منصور الحلاج ، ومن حياة شاعرنا العظيم أبي العلاء المعري - لا أقول أوعية يصب فيها مضموناً ثورياً معاصراً - وانما جسوراً تصل بين تجربتنا الحاضرة وتاريخنا الثوري الذي يمكن ان يهب هذه التجربة العمق والخصائص المميزة والديومة . فالانسان بلا تاريخ ليس أكثر من دمية تشكلها الظروف وتستطيع تحطيمها ، والشعوب بلا تاريخ وجود يتهدده الانقراض ، والفكرة بلا تاريخ فضول عارض لا تحكمه الضرورة . ويصدر ديوان الشاعر الاخير « الذي يأتي ولا يأتي » ( \* ) ليصب في الجرى نفسه متخذاً من سيرة الخيام موضوعاً له .

ويؤكد الشاعر في تصديره للديوان بانه يقصد سيرة الخيام الباطنية ( أي الوجود المتصور وراء أحداث حياته المعروفة وليست أحداث حياته نفسها ) الخيام الذي عاش في كل العصور . ( أي ما يتصف من مواقفه بالطابع الانساني العام . والممكن ان يشترك فيها معه أبطال آخرون في عصور مختلفة وليست المواقف المتعلقة بمشاكل فردية او عارضة ) منتظراً الذي يأتي ولا يأتي ( أي منتظراً الوجود بحكم الواقع والصراع ، غير المتحقق بحكم الظروف ، وبتعبير آخر منتظراً انتصار الحرية ) .

وفي رأينا انه لم تكن هناك ضرورة لهذا التقديم ما دام الديوان نفسه يطرح الموضوع على نحو فني . على ان السؤال المهم الذي يثار في بداية مناقشتنا للديوان هو لماذا اختار البياتي حياة عمر الخيام بالذات اطارا لديوانه الجديد ؟ الاجابة السريعة : ان الخيام كان أحد المدافعين العظام عن الحرية في تاريخنا . ولكن الخيام ليس هذا

« أنا ان كنت سكران بخمرة الجوس فانا ذاك ، وان كنت كافرا او معوسيا او وثنيا فانا ذاك ، لكل طائفة ظن في » ، اما انا فملك نفسي اكون كما اريد » .

وضع الحكيم عمر الخيام هذه الرباعية في ظروف عصره الذي شاع فيه اتهام المفكرين الاحرار بالزندقة . وشاع القتل والحرق ، حتى ان أحد تلامذة الخيام قد اتهم بالزندقة وحمل مقيدا الى بغداد ثم صلب ، مما لا بد وان يكون قد اثر تأسيراً عميقاً في نفسه الشاعرة ، ولكنه رغم هذه الظروف مجتعة يمتلك الشجاعة ليقول كلمته - اما انا فملك نفسي اكون كما اريد - مؤكدا حرية الانسان في الاعتقاد والاختيار منذ ما يزيد على تسعة عشر قرناً من الزمان . ولم يكن هذا الاتهام سوى مظهر واحد من المظاهر العديدة التي سادت عصر الخيام . العصر الذي شاهد تفسخ الحضارة العباسية وسقوط الدولة البويبية وقيام الدولة السلجوقية والحروب الطاحنة بين الشرق والغرب والدعوى الفوضوية الراهبية مثل دعوة العشاشين بقيادة المدعو الحسن الصباح . العصر الذي شاهد الخلافات المذهبية العنيفة بين اصحاب المذاهب الفقهية المختلفة ، والصراع اللامبدي بين رجال الدين - الشيء الذي دفعه الى كتابة مثل هذه الرباعية .

« قال شيخ لومس : أنت سكرى وفي كل ساعة في حزن حبيب . فقلت : كل ما قلته في صحيح ولكن هل أنت أنت كما تظهر للناس » . ان الخيام يلجح الى اختلاف الظاهر عن الباطن عند رجال الدين في عصره ، ويدعو الى ان يكون الانسان ( هو هو ) بنفس التعبيرات تقريبا التي يعبر بها مفكر معاصر مثل سارتر عن دعوته الى الصدق . ولم يكن باستطاعة الخيام ان يعثر على حل للمشكلات الانسانية في عصره بوصفه شاعراً او عالماً او فيلسوفاً ( ذلك انه لم يكن هناك حل لهذه المشكلات خارج الزمن ) وكانت الضرورة التاريخية تقتضي انتظارا طويلاً ، كذلك لم يكن بوسع الخيام ان يهرب من هذه المشكلات الى عالم خيالي ، ذلك انه ليس بوسع الانسان الهروب من وعيه ، وقد كان الخيام من اكثر اعلام عصره سعة في الثقافة وخبرة بشؤون الحياة المتعددة . لهذين السببين : عدم استطاعته العثور على الحل وعدم استطاعته الهروب ، وقع اسير الاحساس المادي المتشائم كما يبدو في كلمات هذه الرباعية : « ايها الفلك ! اني غير مسرور بدورانك ، اطلق سراحى فاني غير خليق ان اعيد ، فان كنت تميل الى الحمقى والذين ليسوا اهلاً للفضل فانا ايضا لست بالمعقل الكامل » . وظل الخيام سجين هذا الاحساس في كل اعماله وأشعاره . ولكن الذي اعطى اعماله قيمة فلسفية عظيمة هو هذا الصراع المستميت والمستمر حتى النهاية ، بين رغبته الثائرة في تخطي حواجز الواقع المحيط وقهرها ، وتحقيق ذاته ، وبين احساسه العميق بعيب المحاولة . - هنيئاً لمن عاش في هذه الحياة حراً - لقد كان بحق أحد اعلام المدافعين عن الحرية في التاريخ ، حرية الانسان ضد القهر الاجتماعي والتاريخي والكوني . وكان من أشد هؤلاء المدافعين احساساً بضرورات الواقع وكراهيته لها ، مما ملا تجربته الثورية بغنى الادراك الواقعي للحياة والانسان . وكان الخيام كذلك ناثراً فيلسوفاً

( \* ) صدرت الطبعة الثانية حديثاً عن « دار الاداب » بيروت .

الشاهد الوحيد في محكمة الزمان  
تصدع الديوان .  
واحتقرت أوراقنا الخضراء في الحديقة المطار  
والعندليب طار .

ولقد أحس الفنان المبدع « آدم حنينه » بالمعنى الكلي الذي يشره هذا القطع . لقد استوعبت اللوحة المعنى الأساسي في القصيدة حقيقة العالم المحترق تعبر عنه المساحة البرتقالية المستديرة والأزهار المحترقة ، والإنسان الصغير في مواجهة ضخامة هذا العالم ولكنسه الإنسان المتجه الى أعلى والحاط بخضرة الأمل . اننا نشعر بعمق امام كل من الصورتين الشعرية والتشكيلية : بروح الشرق التقليدية القديمة ، ولكننا نشعر أيضا بشيء جديد بولد ويواجه الحقيقة المفزعة رغم كل شيء . ان التناقض التراجيدي الناشئ من قدرة عقل الإنسان على التجديد الذي يبتعد به أحيانا عن الحقيقة ، حقيقة الحياة ، وحقيقة نفسه ، ومن تكوينه المادي الذي يجبره على الشعور بقصوره عن امتلاك العالم ، وامتلاك ذاته في نفس الوقت ، هذا التناقض هو الذي يجسده الشاعر في المقطع الأول بين صورة الحلم تلك الرسومة على الفلاف وبين إيمانه الخرافي بالسحابة المنقذة وبين الإحساس المادي بالموت . انه يدخلنا بطريقة غير مباشرة الى جو عمر الخيام وعصره حيث الهوة بعيدة بين الحلم والتحقق وحيث الواقع الرازح تحت ضغوط القهر الاجتماعي . وهو حين يلجا الى التجديد في صياغة هذا المقطع بل وإثارة التأمل في عناصر شكسبيرية ، يكون أقرب الى التوفيق في اكتشاف الصياغة اللامعة لشمول الإحساس بذلك التناقض الاجتماعي والكوئي المراد توصيله .

## ٢ - الطفولة :

وندخل مع الشاعر بالمقطع الثاني فيما وراء الفلاف من الوجود الداخلي للإنسان فيحدثنا عن الطفولة ، وهنا لا تعني عند الشاعر مرحلة مبكرة في حياة الإنسان أو البشر ، وإنما تعني حياة البراءة التي لا تمنع ، وإنما تنتزع ، لا تأتي من التأمل وإنما ترتبط بالفعل حين يتحول المعتد المتعالي الى سلوك تلقائي ، وحين يتحول العذاب الى طاقة تفتح العين على الجانب المدهش من الحياة والأشياء :

بشمن الخبز اشترت زنبقا  
بشمن الدواء  
صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة  
لامنا الأرض التي تولد كل لحظة جديدة  
نمت على الأرصفة الفبراء

اصطدت الفراشات ، وقعت في شراك النور .  
ان الشاعر هنا لا يفكر بالصورة كما كان يفعل من قبل بحيث يمكن قراءته بسهولة ، فان الصورة الشعرية تظهر وكأنها ذات ثقافة خاصة بالأشياء ، وهي تبدو وتمتد وتلدب في الصور الأخرى من القصيدة لتبني عالما سحريا لكل كلمة فيه معنيان ، المعنى المألوف المنفصل عن حقيقة الواقع رغم ارتباطه الظاهري به ، والمعنى الخاص المستمد من طبيعة البناء .

ولكن ما يميز عبد الوهاب البياتي رغم لجوئه الى هذا الاستخدام الرمزي للكلمات والصور عن غيره حتى الرمزيين انه يستطيع بقدر كبير من التلقائية ان يكشف عن الدلالة الواقعية المتمثلة في التسام والتقاطع والتضاد في بنائه الصوري ولغته الشعرية . فالشاعر عندما يقول : « ولدت في جحيم نيسابور - قتلت نفسي مرتين » إنما يستخدم كلمة القتل كاشفا عن وجهها الآخر الذي يعني المفارقة والتخطي فهو يولد في القصيدة مرتين :

الأولى - عندما تنفصل عنه ذاته لتقع في شراك الحلم بالمدينة الفاضلة .

فحسب وإنما هو قبل ذلك يحمل خصائص تميز ثوريته . بل انه يشترك مع أبي العلاء في معظم هذه الخصائص ومع العلاج في كثير منها مما يدعو الى طرح السؤال من جديد . وفي اعتقادنا انه تستحيل الاجابة الرضوية عن هذا السؤال دون ربط الخصائص المميزة لهؤلاء الأبطال بواقفنا العربي المعاصر ، واقع الحياة ، وواقع الإنسان .

وإذا أخذنا في تعداد أوجه التشابه بينهم فإنا لن ننتهي ، وقد يخرج بنا هذا عن طبيعة الدراسة ، فحسبنا ان ذكر هذه الصفات العامة المتبقنة مع ملاحظة ان أهميتها تبرز فيما تمل عليه ويختلفي وراها ، وقد يسهل بعد هذه التحديدات ادراك لماذا كان كل منهم بطلا مقتربا في عصره . ولماذا تميزوا جميعا بالصراع في جبهته في وقت واحد ؟ الصراع مع الذات على أساس صوفي أو فلسفي مرتبط بالفرة الكنائية والاجتماعية ، والصراع مع المجتمع الناشئ من الاختلاف مع المفاهيم السائدة عن الحياة والأشياء والقيم . لنذكر بعد ذلك كيف ان هذا الصراع الثنائي الذي يجمع بين العمق الدرامي والمظمة الملحمية ، قد خلق وجودا فريدا في دلالة الذاتية والاجتماعية لكل من هؤلاء الأبطال . وسنرى كيف تصطبغ شاعرية عبد الوهاب البياتي بهذا الوجود في ديوانه الأخير . وكيف يعكس الواقع الذاتي والاجتماعي في تجربة الشاعر على سيرة الخيام من خلال الصياغة الشعرية في توافق وتقاطع خلاق يستثير الحاضر محملا بالماضي أو الماضي منعكسا على الحاضر في صورة شعرية رائعة . وإذا كان الديوان كما سبق ان ذكرنا قصيدة طويلة عن سيرة الخيام فهذا لا يدع لنا مجالاً لدراسته في زاوية واحدة حيث يشير اكثر من قضية وأكثر من مشكلة انسانية . صحيح ان القصيدة ككل تتمتع بوحدة الجو النفسي والفلسفي والصياغي وطريقته الخاصة في إثارة الذات الثقافي القومي والإنساني محملا بمطافة الشاعر وجهة نظره الخاصة ، لكننا نفضل محاولة الكشف عن القصيدة في تابعها الزمني خلال الثمانية عشر مقطعا ، لعلنا نستطيع النفاذ في النهاية الى عالمها الخاص واكتشاف الاسس الفنية والفكرية التي تسيطر على هذا العالم .

## ١ - صورة على غلاف :

كان على جواده بسيفه البتار  
يمزق الكفار  
وكانت القلاع  
تنهار تحت ضربات المزل الجياع

تبدا القصيدة بهذه الصورة المجسدة للحلم الإنساني في التحرر من القهر الاجتماعي ، وهي صورة عامة جدا موجودة دائما على سطح الأشياء وملائمة تماما للفرض منها وهو تأكيد الرغبة العارمة التي تملأ وجدان الإنسان العادي البسيط في تحقق العدل . ولكن ما ان نترك هذه الصورة حتى نواجه بصيغة ممثلة بالأمل الذي يلفه الفموض :

مولاي : لا غالب الا الله  
فلتفسل السحابة

ادران هذي الأرض ، هذي القابة .

ويتحول الأمل القامض لنرى وجهه الآخر احساسا ثقيل بالعجز امام الموت :

مملكة الموت على اسوارها الحراس  
يرتق النعاس  
عيونهم ، فلتفتح البوابه  
وليدخل القالب والمفلوب

وينتهي المقطع الأول في القصيدة بصورة الواقع المستسلم امام فوهة العمم والنشل والزيف :  
وان هذي النار

الثانية : عندما تبحر ذاته باحثة عن مدينة لم يقف الشحاذ في ابوابها يوما .  
 وهو لم يعن بقتله لنفسه مرتين سوى مقارنة ذاته له مرتين .  
 الاولى : من أجل اعادة صياغة نفسها في عالم الحلم المثالي .  
 الثانية : من أجل اكتشاف واقع يعطي لوجوده قيمة ، رغم ان هذا المقطع ينتهي بسؤال ممتليء بالياس : « متى ؟ اينها الشمطاء ؟  
 - ستمطر السماء ؟ وتولد الحقيقة ؟ - من هذه النفاية الفريقة ؟ » .  
 الا ان هذا المقطع لا يخلو من مضمون ثوري يتمثل في ذلك البحث المدفوع بعاطفة قوية نبيلة ، وذلك التمزق بين السماء والارض بصرف النظر عن النتيجة .

### ٣ - الليل فوق نيسابور :

ما اصعب الميلاد في مدينة مثل نيسابور وسط الانفاض والتحطم واللصوية والموت ، فبعد ان يصور الشاعر في بدايه هذا المقطع مدينة نيسابور التي مر عليها كل الغزاة في صورة بالغة القسوة والفظاعة تكون مهيبين تماما لادراك مدى صعوبة الميلاد في مثل هذا المحيط :

البشر الفانون

يعظمون بيضة النسر ، ويولدون -

من زبد البحر ومن قرارة الامواج

من وجع الارض ومن تكسر الزجاج

فيا له من ثمن فادح للسعادة التي قد يحققها الميلاد ، ثمن اكبر بكثير مما يتصوره العقل الانساني ، فبعد كل هذا التحطم والفرق والوجع ، لا بد وان ياتي الميلاد مختلطا بمرارة عميقة ، وكأنها صفقة خاسرة لا تفري بالمحاولة ، اذا ما حكمنا في الامر موازين العقل ، ولكننا نحاول رغم كل شيء ، رغم الحكمة ورغم العذاب ورغم اللاجدوى : لنقرأ الكتاب بالقلوب :

من أجل ان نضيء ليل نيسابور

### ٤ - في حانة الاقدار :

حين يفقد المثل الاعلى معناه فلا يبقى للادراك الا انتظار معجزة ، وحين يندم وزن الانسان في الحياة ويتأكد من ضياعه ، لا يبقى له سوى تلمس اللحظة الجميلة حتى وان كانت هشمة عارضة ، لا يبقى له الا ان يؤمن بها . فالوقت المدرب الخبير يقف له بالمرصاد وما من فرصة للفرار :

وابحث عن الفراشة

لعلها تطير في هذا الظلام الاخضر المسحور

وأشرب ظلام النور

وحطم الزجاجاة

فهذه الليلة لا تعود

فلنحدث نفرة نطل منها على الحلم ، نفرة في جدار التشابه القاتل والحسم الرياضي والنفعية ، نفرة في « مدن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك » لنصنع البهجة ولا ننظر الخلاص :

يا ايها الملوك

بكم تبيع هذه القيود ؟

فهذه الليلة لن تعود

طارت كما طار بنا بساط الف ليلة

معانقين تحت أضواء النجوم « دجلة »

### ٥ - طردية :

مع الذعر والالم يقبل الاعداء ، ومن خلال الصراع بيننا وبينهم نولد من جديد ، من خلال دفاعنا عن الحياة : بكم تبيع ايها الصياد ؟

شهادة الميلاد ؟ وعلى مرآة التاريخ تتسداخل صور الموت والتشبث اللانهائي بالحياة والعذاب ، فنرى كاترين همغواي تموت في اشد لحظات الحياة احتياجا الى وجودها . والارنب المدعور يترك من دمه علامة على انه قد عاش يوما ما حتى وان كانت هذه العلامة على مخلب قاتليه الكلاب ، ونرى شيخ العربي يستمد من عذابه القدرة على فتح كوة نبصر منها الفراغ والنفاهة التي تسيطر علينا من الخسارج . . . ومن جحيم هذه الولادة الدامية تبتثق الموسيقى معبرة عن الاحساس المرير بالزوال المحيط بالاشياء والموت المتربص بنا ، وترتفع حرارة الانفعال حتى يتراءى التاريخ على مرآة الحاضر :

اهكذا ينتحب المشاق ؟

ويغرق النهار في البحيرة الكبيرة ؟

وترحل الطيور

والارنب المدعور

يموت تحت قدم الصياد

مخضبا بدمه الاوراد .

ولكن ماذا يفعل الشاعر حين يغلبه الاحساس بدمه قدرته على الفرار والموت في كل مكان يضرب الحصار . انه يختم هذا المقطع وكأنه يقول لنا حتى لا يلتهمنا الياس فلنلجأ الى السخرية :

فلنشرب الليلة حتى يسقط الخمار

في بركة النهار .

### ٦ - الموتى لا ينامون :

حتى لا تزعجنا الشيوخة ولا يبقى لنا الا الحسرة على التوهج القديم وحتى لا يفرقنا البكاء على امس ضائع .  
 علينا ان ندرك هذه الحقيقة ان الموتى لا ينامون سواء المسوتى بداخلنا ، ذكرياتنا ، جنبا العابر ، توهجنا الحسي والفريزي او موتانا جميعا ، الاسطورة والتاريخ . هؤلاء وهؤلاء يظلون مستيقظين بداخلنا منتظرين البعث . ولقد أحس الشاعر بهذا الوجود في صورته الفربودية « الفردية » والجدلية « العامة » :

شعرك شاب والتجاعيد على وجهك والاحلام

ماتت على سور الليالي ، مات « أورفيوس »

ومات في داخلك النهر الذي أرفع نيسابور

وحمل الاعشاب والزوارق الصغيره

الى البحار ...

وفي صياغة متماسكة ينتقل من العام الى الخاص . « قالت » : ومدت يدها الوداع - اراك بعد القد ، في القهى . . - وغطت وجهه سحابة - من الدموع ، بللت كتابه . « شيئا فشيئا نكتشف بان مثل هذه الاشياء تخدعنا حين تعلق على موتها فنحسبها كذلك وهي في الحقيقة حية كامنة ، بطريقة غامضة ، تماما كمائشة التي ماتت . ولكن الشاعر يراها تدرع الحدبة كفراشة طليقة لا تبصر السور ولا تنام . فاذا كان علم النفس او الفلسفة قد تعرضا لهذه القضية فان امكانيتهما تقتصر على مخاطبة العقل ، ورصد الخطوط العامة للظاهرة اما الشعر في هذه القضية فانه يعيد صياغة الظاهرة ويمنحها وجودا انسانيا ذا طابع عاطفي مؤثر ، وما دام هؤلاء الموتى لا ينامون فان الامل في يقظتهم يتجدد ويستمر ويصير عادلا :

ايتها الجنية

تناثري حطام

مع الرؤى والورق الميت والاعوام

وخضبي النهر الذي في داخلي مات ورشي النور

في ليل نيسابور .

## ٧ - الذي يأتي ولا يأتي :

عن موت عائشة الحقيقية المتجسدة في موت المشوقة ، الحقيقة التي تستطيع حبسها أصفر الكائنات واحقرها شانا ، الحقيقة التي يزحف عليها الزيف فلا يبقى سوى الوهن الانساني ، وقوة العدم ، والحياة البسدة .

من موت عائشة يولد الاحساس المستسلم بعيب الحياة ، ومع الذكريات تزداد المرارة والوحدة والياس . ولكن ما الذي سيغيره الوحيد اليأس ؟ انه يستطيع أن يتحدى قدره بلا خوف :

فلتمطري ايها السحابة

ايمان شئت

فقدنا تخضر نيسابور .

لقد ودع الشاعر الرغبة في الخلاص المطلق ، وادرك معنى الحياة والموت كوجهين متلازمين للوجود الانساني ، واهتز يقينه في التحقق المقبل ، ولكنه يصر على المفارقة وينظرها بشجاعة :

من كان يبكي تحت هذا السور ؟

لعلها الريح الذي تسبق من يأتي ولا يأتي

لعل شاعرا يولد او يموت .

## ٨ - الرؤيا الثالثة :

في المقطع الثاني من القصيدة لعنوان « الطفولة » اتخذت رؤيا الشاعر للتحول الانساني طابعا رومانسيا متشائما ، وفي المقطع الثالث من القصيدة بعنوان « الليسل فوق نيسابور » اتخذت رؤيا الشاعر للتحول الانساني طابعا عدما ، وفي هذه الرؤيا الثالثة تتخذ الرؤيا الشعرية طابعا جدليا ، فالحسن الصباح يتحول الى رمز للانسان الحر في عالم ينتصر فيه المنافقون والمارقون والخونة ، انه شبح يرمز الى المستقبل حيث ستمزق المدن لتفتح البذور عيونها في باطن الارض وتشق دربها للنور والهواء ، وحيث ستعود الاشياء الصغيرة الرقيقة لتهزنا من جديد :

مولاي ، هذي زهرة تبكي على عتبة هذي الدار

وهذه اخرى على الجدار

تمد للصفار

خصلتها المطار .

وسيولد البشر من جديد ، اولئك الذين يشقون الارض في اصرار متحملين اوجاع الارض ، لتولد من اضلاع نيسابور حقول النور :

## ٩ - العودة من بابل :

لقد ماتت الاسطورة ، وعلينا أن نواجه الحياة والموت دون عون من هذا الوسيط ، سواء تملقت الاسطورة بشخص كالاسكندر الاكبر ، او بتاريخ حضارة مثل حضارة بابل . ورغم اننا نشعر بالاجاعة الى الرجوع الى هذه الينابيع الانسانية التي تحمل تالق الحلم البشري في عصور باكملها وربما تعيننا على تحمل عبء الحياة ، فاننا سنظل معرضين للاستغراق في هذه الاحلام المحكوم عليها بالانتهاء وقد لا نستطيع الخروج منها ثانية .

ان البياتي يعلن بوضوح موت الاسطورة :

بابل تحت خيمة الليل الى الابد .

ويسخر في الحلم ببعثها ، حين يعيد صياغة هذا الحلم :

بابل تحت قدم الزمان

تنتظر البعث فياخذتار

قومي ، امثي الجرار

وبللي شفاه هذا الاسد الجريح

## وانتظري مع الذئاب ونواح الريح

ولتنزلي الامطار

في هذه الخرائب الكئيبة .

ولكن عشتار ستظل على الجدار مقطوعة اليدين ، يعلو وجهها التراب والصمت والاعشاب ، لتنتطق صيحة الشاعر يدعوها السي الرجوع ويعلن انطفاء الحلم ، وتتصاغر عناصر الطبيعة والاحساس بالزمن ، واصوات الكلمات ، لتضع نهاية بالغة التوفيق لهذا المقطع :

صحت على اطلالها عشتار

فصاحت الاحجار

عشتار يا عشتار ، يا عشتار

تصدع الجدار

وغاب في الخرائب القمر

وانهمر المطر .

## ١٠ - بكائية :

عندما تتحطم رغباتنا في الحب والسلام على صخرة الواقع القاسية ، وتعود نبحت في وجودنا الداخلي عن سبب موت عائشة او قليلا ، او نسال الاقسدار عن الحكمة الخافية علينا في هذه الاحداث عبثا سنعرف السر ، وستظل حبيبانا كعائشة ضائعات كالريح في العراء ، ما لم نكتشف وجه نيسابور الآخر ، الذي يصنع الجنون والسوت :

فعد لنيسابور

لوجهها الآخر ، يا مخمور

ونز على الطغاة والالهة العمياء

والموت بالمجان والقضاء .

## ١١ - الحجر :

نحن الذين نتمزق بين عجزنا ، وبين انتظارنا للمعجزة ، يتقدم بنا العمر ، وتنتطق صرخة استغاثة اليوتية من الشاعر :

من أسفل السلم ناديتك يا رباه

جلدي يساقط في الظلام -

شعري شاب ....

ومع تقدم العمر نشهد التحول المحزن للاسطورة ، فها هو السندياد العظيم قد مات ، ودفن بورك الجرائد الصفراء ، وها هي « ارم العماد » قد فرقت عبر الليالي ، وعصا سليمان ينخرها السوس ، لتطول القربة وتفقده الامل في المعجزة ويصير السؤال املا معلقا في الهواء :

فاين يا رباه !

شمسك ! تحيي الحجر الرميم .

## ١٢ - الموت :

ماذا يحدث عندما يعرض الشاعر صورة القسوة والالم والفساد والزيف على مرآة الموت ؟ وماذا يحدث عندما ينعكس الموت على مرايا القسوة والالم والقدرة والزيف ؟

الثعلب المجوز

الملتحي بالورق الاصفر والرموز

المرتدي عباءة الليل ، وفوق راسه طاقة الاخفاء

يفتض كل ليلة عذراء .

لا بد واتنا سنكتشف مع الشاعر قسوة العيب وعيب القسوة ، وسنكتشف الطبيعي في الشيء الشديد الغرابة في ظاهره ، فالوت

بحق يقرأ في كل اللغات كتب الفلسفة الجوفاء :

و ... يرمي بها النار ...

وستكتشف القريب فيما نحسبه طبيعياً حين ينطلق الموت بيننا :

يندس في قلب المغني ، يقطع الاوتار

يدل من يشاء

يعز من يشاء

وأخيراً سنكتشف التناقض الرهيب في هذه السخرية :

التعلب العجوز ، مر من هنا ، سكران

حوم حول البيت واستدار

أخرج لي لسانه وسار

ان البياتي يصور المهزلة بتجسيده لمطلقانا في صور جزئية ، ويعرضه صورة الانسان بصورة رمزية في اطار المطلقات ، فيحدد احساسنا بمعنى وجودنا وبمعنى وجود العالم المحيط بنا ، الشيء الذي يعطي المتلقي الفرصة على نحو موضوعي ليكون اكثر تواضعاً وانسانية .

### ١٣ - الوريث :

في هذا المقطع يصور أشاعر التناقض العظيم بين ضخامة ماضي الانسان وبين تهاة الحياة اليومية الحاضرة ، هذا ما يلوح فيسي الظاهر ، ولكن الشاعر انما يستخدم من بوذا وهوميروس ، والمغني وشهريار ، والربيع والفايات ، رموزاً على داخل الانسان ، الداخل الذي عبر عن نفسه بالامس فخلق هذه الاشياء ، ثم مات ، فهو الآن يلهت على قارعة الطريق .

ينام في المقهى .. يبحث عن وظيفة شاعرة في صحف الصباح . ومن هذا أتناقض بين حياتين ينفجر الاحساس المعاصر بالانفصام في حياة الانسان ، باغترابه المرير عن ذاته في عالم لا يساعده على تخطي هذه القرية ، وما هو ما يزال :

يحوم حول سوره عريان

فاكهة محرمة

ومدن بلا ربيع مظلمة

مفتوحة ، مستسلمة

تحيا على الفئات

مات المغني ، ماتت الفبايات

والعندليب مات .

الشاعر يشير الى موت الطبيعة الحسية والفريزية في داخل الانسان ، وما هو يدور حول نفسه لا يدري انه يستطيع ايقظ هذه الموجودات المستسلمة ، ليعود الى الحياة بكامل كيانه ، ولا يكتفي بالفئات .

### ١٤ - الليل في كل مكان :

يقرر الشاعر في هذا المقطع ثلاث حقائق : كثرة اسلاب هذا الليل - كثرة أفراح هذا العالم الكبير - غضب الاجيال والموت والانتظار . وبعد أن يرسم صورة الاسلاب والأفراح والغضب والانتظار ، مستمداً أشكالها من عناصر الطبيعة والحياة الدائمة ، يرسم صورة أخرى مستمدة من التناقض الاجتماعي الحديث ومنظوية عليه :

الساسة المحترفون ورجال المال والملوك

سادة هذا العالم منهوكة

وأنت سيد بلا مملوك

عليك مكتوب ، بأن تحوم حول السور .

ولكن بعد أن نصل الى هذا الحد فاننا حتما سنتركه :

الليل في كل مكان وأنا أنتظر الاشارة .

### ١٥ - البحث عن الكلمة المفقودة :

ان الكلمات التي لا تقال أكثر من الكلمات التي نقولها دائماً ، وما هو الخيام يعني : ( ذهبنا وبقي الزمان بعدنا مضطرباً ، ولم يبق الا جوهرة واحدة من مائة واثمنا ! فقد بقيت مئات السوف المعاني الدقيقة غير مذكورة خوفاً من حرق الناس ) .  
لكن عبد الوهاب البياتي يكشف عن بعد ثوري جديد في هذه الحقيقة ، فهو يرى :

الزمن الضائع والارض التي تهجرها الطيور

والموت في الظهيره

في النفق المسدود

تمزق الجنود

في باطن الارض ، انهيار هذه السدود

صيحة انثى الحيوان ، رقصة الافعى على الانغام

تراكم الحزن ، اختناق الصمت في الزحام

عذابك المقيم

أشعل هذي النار في الهشيم

أيقظ نيسابور .

فالزمن الضائع والكلمات المفقودة والكفاح الذي لم يكتب له النجاح ، والوجود الباطن في الانسان والاشياء ، هو الذي يحقق الميلاد الجديد ، من خلال اصطدامه بالظاهر والسائد ، ويختفي هذا الادراك الفلسفي الجدلي ، وينوب في حرارة الادراك الشعري :  
وولد الانسان ...  
شجيرة من خل الرماد والجليد  
مزهرة ....

### ١٦ - خيط النور :

رغم دموية العصر ، فانه يحتشد بأفعال البطولة ، ولكنهما البطولة بمفهوم جديد ، يجمع بين مصارع الثيران الذي يواجه الموت ضاحكاً من أعماقه منتظراً وحيداً ، وبين الذي يبيع علب الكبسريرت في مطار روما ..

بين الذي يعلم الصفار في الهند ، والذي يعدم رمياً بالرصاص . فهي البطولة التي توجد في أبسط الافعال كما توجد في أعمالها دويماً ، وكان الشاعر يرى ان مجرد الحياة النظيفة ، بطولة في عالمنا الملوء بالفوضى ، ويكفي الانسان :

يزرع في الجليد

بنفسجات حبه الجديد

يزور في أعياده الموتى ، يفني الموت في الميلاد

يحمل في ضلوعه بغداد

يمد نحو الوطن البعيد قوس قزح السماء

يجهش في البكاء

يضاجع النساء

يكتب فوق حائط السجن ، وفوق جبهة المدينة

أشعاره الحزينه .

### ١٧ - الصورة والظل :

اذا نظرنا الى الجزء السابق من القصيدة ، نستطيع أن نلاحظ ظاهرة عامة ، تفرض نفسها على كافة مراحل التجربة ، وهي ظاهرة الانفصام ، يبدو لنا مثملاً من ذلك التناقض بين صورة المسلاف وبين الداخل في المقطع الاول ، بين حياة البراءة وجحيم نيسابور في المقطع الثاني ، بين ألم الميلاد والقدرة على التحقق في المقطع الثالث ، بين لحظات السعادة المعارضة وبين الجبر الاجتماعي في

## الرؤية المزروعة

أمام الحائط الممثل بالوهن  
وعند الشوارع المسقوف بالكفن  
وقفت أراقب المشهد  
على بوابة الزمن  
حروف خلفها البسمات جرداء  
تبعثر من سمات شحوبها نغم الشفاه ودمعة المعبد  
وكادت تمحي من دوحة المولود أشياء  
وتفرق في خضم اليأس بين جدائل المدن  
هوية نازح وشهادة المولد  
ولكن الحروف تحركت وتعانقت مثل ، الجداول ،  
ماؤها العذب  
يدوِّب بعضه ، فيضوع من جنباته الحب  
وكان تألق العصمات من صداً السنين منارة السفن  
وكان وكان ألف معانق « رأس الحسين » على بطاح  
الأردن المدعور من وثن  
حناجرهم تزغرد في رحاب الصمت ، ( والقلب  
تلفت ) نحوهم يصفي الى تفريده المنشد :  
« هناك أعيش لا فرق  
هناك أموت لا فرق  
هناك سأزرع الرؤية  
سأجعل من بقاء نباتها غاية  
وأصرخ في دمي : فتح من الله  
وفتح من قوى القوة . . . »

\*\*\*

مضوا في العتمة الحمراء سخرا فوق صدر الذئب  
ينهار  
فتختل المفاصل من وحوش الغاب . . تحتار  
مضوا فتبعتهم والظل يتبعني  
ويدفعني . . .  
ويدفعني . . .

عبد الرحمن عمار

حمص

المقطع الرابع ، بين السخرية وبين الموت في المقطع الخامس ، بين  
الاشعور والشعور أو بين الماضي والحاضر في المقطع السادس ،  
بين اليأس وبين الرغبة في المفامرة في المقطع السابع ، بين الجهد  
الانساني وبين الفوضى في العالم في المقطع الثامن ، بين الاسطورة  
وبين الواقع في المقطع التاسع ، بين الجنين والضياع في المقطع  
العاشر ، بين الرغبة في الرحيل والعجز في المقطع الحادي عشر ،  
بين المطلق وصورته في المقطع الثاني عشر ، بين الانسان وتاريخه  
في المقطع الثالث عشر ، بين الانسان والعالم المحيط بسسه في المقطع  
الرابع عشر ، بين الزمن الضائع والثورة في المقطع الخامس عشر ،  
بين بطولة الحياة وقسوة الصراع في المقطع السادس عشر .  
وبعد ان يواجه الشاعر ظاهرة الانقسام هذه مسلطاً الضوء على  
أكثر من جانب في الحقيقة الانسانية ، في وجودها الفردي والاجتماعي  
والتاريخي والكوني ، لا نشعر الا بقدر هائل من التشاؤم واليأس ،  
وبقدر ضئيل جداً من الامل ، ولكن في هذا المقطع يقترح تصوراً  
جديداً للخلاص :

لو جمعت أجزاء هذي الصورة الممزقة  
اذن لقامت بابل المحترقة  
تنفض عن أسماها الرماد  
ورف في الجنائن الملقه  
فراشة وزنيقه  
وابتسمت عشائر  
وهي على سريرها تداعب القيثارة  
وعاد أوزوريس  
لانظفات احزان حادي العيس  
ونورت في سبأ بلقيس  
وعادت البكاره  
لهذه الدنيا . . .

وواضح ان تصور الشاعر للخلاص يتحدد في الدعوة الى تخطي  
الانقسام وتجميع أجزاء الصورة حتى يكون الانسان صادقا مع ذاته  
مدركاً لعالمه . أما البكاره هنا فلا تعني البراءة المفقودة المرتبطة  
باللاهوت ، وإنما تعني تجدد الاحساس بالحياة ، وازدهار الداخل ،  
الحل اذن : هو الصدق مع الذات ، والادراك الشامل للعالم ، لنكسب  
القدرة على مواجهة الحياة وتغييرها مهما تكن الظروف المحيطة بنا .  
١٨ - تسع رباعيات :

ولكن الشاعر لا يريد ان يتوقف عند هذا الحد المتفائل المهدى ،  
وانما يختم قصيدته بتسع رباعيات أشبه ما تكون بتسع صرخات  
استغاثة قصيرة حادة مركزة تنتزع الوسائد الطرية من تحت رؤوسنا  
لتواجه من جديد صور الحب الفاشل والتمزق والموت والطموح الى  
الرؤيا الشاملة وفوضى العصر والحزن والوعود والحلم بالخلاص  
ثم نيسابور من جديد في النهاية وهي تخلع ثوب حزنها كالحية وتكسر  
الاصفاد .

خاتمة :

وبعد ، فلربما يسأل سائل : وأين حياة الخيام في هذه  
القصيدة ؟ ونجيب بان القصيدة صورة عظيمة الصدق لحياة الخيام  
احتوت على كل معطيات عصره الهامة وكشفت عن الواقع الذي من  
الممكن أن يدفع بمثل تساؤلاته وأغانيه الى الوجود . انها حياة الخيام  
الباطنية الذي عاش في كل العصور منتظراً الذي يأتي ولا يأتي .

شوقي خميس

القاهرة